

في وجه الثورة على الأخلاق

للأستاذ أمين الخولي

الأستاذ بكلية الآداب

يا صاحب الرسالة

أبلفت قراءك ثورة محمود على الأخلاق فتحدث إليه الأستاذ عزام ، وسكت محمود حين امتلأ بطنه ؛ لكن كان المجلس حافلا بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب ، فكانوا كلهم لمحمود وعلى عزام ... وإنما كان موضع الجدل أن الأخلاق الفاضلة لا تصلح أن تكون عدة النجاح إن لم تكن عدة الفشل ... وأن هؤلاء الطيبين الأخيار الذين وصفهم الأستاذ عزام بالفتاة ، وخصهم بالرضا ، لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كسيدناوى والبدرناوى وعبود (١)

فلنسأل الثائر عن هذا ثم ننقل إلى غيره : لم لا تصلح الأخلاق الفاضلة أن تكون عدة النجاح ؟ هل يتحدث الواقع الصحيح بهذا ؟ لا أظن ؛ بل أعتقد دائماً أن فشل الفاشلين لعجزهم أو ضعفهم أو نقصهم يمل بالفضيلة والأخلاق . وإلا فهل خرج إلى ميدان واحد من الحياة رجلان تساوى فهمهما لهذه الحياة ، وتساوى تسليحهما لما يفيان من غاية ، وكان أحدهما نبيلاً ، والآخر فسقياً ، فنجح الثاني وسقط الأول ، أو نجح الثاني أكثر من نجاح الأول ، بغير فارق إلا فضيلة الأول ورذيلة الثاني ؟ لا أظن ، فلو كانا في عمل حر ولهما هذا التساوى التام لأكد الواقع أن أي مجتمع مهما اشتد فساده سيجد في فضيلة الأول نوعاً من الدقة والثبات ، وسيكافئ للطمأنينة إليه ، ويدفعه كل أولئك إلى الإعجاب به وإثارة معاملته ؛ بل لا أشك في أن الثاني أسافل لن ينجح إلا إذا اصطنع هذه الفضيلة وحقق آثارها بل ادعاها في غير مناسبة كما هو شأن أعداء الفضيلة دائماً . ولو تخلفت هذه النتيجة فنجح النذل أو زاد نجاحه لغير فارق آخر بين الرجلين فما أظن هذا يكون إلا عن نسبة من الندرة تؤكد القاعدة ولا تهدمها ؛ وأنا كفيل بأن تجد دائماً في مثل هذه الحالة قارقاً في الكفاية والاستعداد واليقظة وما إلى ذلك

وإن ذهب وهم القارىء - كما ذهب وهم أصحاب هذه الثورة - إلى أن النذل سيصطنع بمد الكفاية والاستعداد أساليب منحطة لا يلوى عليها النبيل ، فقد فاته أن يقظة النبيل تقضى عليه باحتياط نبيل لهذه الأساليب ، وعمل على كشفها وفضحها ، وإلا كان ناقص الاستعداد محدود الفهم لواقع الحياة ونذالة الأنذال ، وعاد النقص على استعداده ولم يكن الذنب لفضيلته

هذا حين يتحد الميدان ؛ لكن الثائر سيقولون إن الميادين متعددة وسبيلها إلى الوصول مختلفة ، وسيتخير النذل أقصرها وأسرعها فيصل في غير مشقة ، على حين يكبد الفاضل فيصل متأخراً ولا يصل إلا لبعض الشيء . فهب أحدهما أتجر في الغلال أو الأفطان لأنه فاضل ، وأتجر الثاني في المخدرات أو الرقيق الأبيض لأنه لا يبالي ؛ حسن ، سيرج الأول ربماً يسيراً ثابِتاً غير مهدد بالتضحية من أجل حمايته أو الوصول إليه لأنه أكشف الوجه واضح الطريق ، ربماً غير مهدد بالمطاردة ، غير مهدد بالمخاطرة ، غير مهدد بالمرض وقصف العمر سريعاً ؛ وسيرج الثاني ربماً وافرأ سريعاً يبذل غير القليل منه لحمايته أو الوصول إليه ، ربماً مهدداً بالخطر ، مهدداً بقصر العمر إثر الجهد والاحتياط والمجازفة ، بل مهدداً بالموت السريع ، والفضيحة العاجلة ... إلى آخر ما لا أزجج القارىء به من آفات تكفي أيسر نظرة متأنية لتبينها وتشهد بأن لذة زوجة شريفة من زوجة غير سميذة أكثر في مجموعها وأقوى في جلتها من لذة مومس هائلة ، لا تريد حياتها في ذلك على بضعة سنوات حين تطول حياة الزوجة عقوداً بعد تلك السنين . والعملية الحسابية المادية تحدث نتيجة دائماً لو أحسن حساب اللذائذ والآلام ، والخسائر والكاسب بأن الفضيلة قد اختيرت لمائدتها فوق ما فيها من النبل ، وأن ليس الفشل لسبب خلق بل لغيره دائماً

وهناك الوظائف والديوان والجران الأسرف فيها على الهوى واضطراب السياسة قد تظهر ميداناً غير خاضع لهذه القاعدة ، ميداناً قد ترتفع فيه نسبة الشذوذ والتخلف ، لكن حتى هذا الميدان تنتهي فيه النظرة المتأنية إلى تلك النتيجة نفسها ، فلو دخله موظفان قد تساوى في كل شيء ، واختلما في الخلقة لم يهن أن ينجح النذل لنذالته لا غير إلا حين يسلك طرائق يأبأها الشريف فيتقدم هذا كلما اضطرب الميزان وضعف الرئيس ، لكنه تقدم غير مطرد ؛ إنه تقدم مهدد بمثل ما يهدد تاجر المخدرات أو قريفاً

(١) من عبارة الأستاذ الزيات في العدد ٢٣١ من الرسالة بصرف اقتضاه إدماج العبارة لا غير

لا يخشى في الحق لومة لائم . وما هذا الذي يبيب الثائرون من صور التواضع المتضع ، والزهد العاجز ، والقناعة المحرومة ، والتوكل الخامل ، إلا صور لامتर्फها الأخلاق ولا يفشل أصحابها لأخلاقهم بل يفشلون لفشل أخلاقهم

وأما هذا الربا الذي جاء في عداد تلك الأخلاق فسألة اقتصادية عملية ، لا خلقية أدبية ؛ وهي فكرة اقتصادية ، يقرن فيها النظام الاسلامي الكامل الذي قررهما بالنظم الاقتصادية الأخرى ليحكم لهذا أو ذاك ، وليست تلك المسألة من أسباب الثورة على الأخلاق في شيء .

ويعرض الأستاذ الزيات على لسان تلك الثورة أن يكون مقياس الفضائل والذائل هو النفع والضرر ، فما كان مؤدياً إلى منفعة سمي فضيلة ، وما كان مؤدياً إلى مضرة سمي رذيلة . وهذا مقياس لا بأباه الدين ولا الخلق ، فالذهب النفى قديماً وحديثاً معروف بين مذاهب الخير ؛ ولكن ليس بهذا اليسر والسهولة التي تفهمها الثورة على الأخلاق ، وتأخذ فيه باللحمة الطائرة . فما المنفعة المحككة ؟ وما المضرة المتقاة ؟ أم منفعة الفرد أم منفعة الأسرة أو الأمة أو العالم ؟ ألمنفعة المادية الحاسية أم المنفعة المعنوية العقلية أم هـا أم فرع منهما وما هو ؟ ألمنفعة العاجلة أم المنفعة الآجلة أم هذه وتلك ؟ ومتى تكون هذه ومتى تكون تلك ؟ وإذا تمارضت منفعة ومضرة فكيف يوازن بينهما وبأى شيء ؟ وإذا وجدت منفعتان في عملين فكيف يفاضل بينهما وبأى شيء ؟ وإذا وإذا ... من مضايق شائكة يسلكها الباحث ليخرج منها بمقياس للأخلاق منفى . وقد اتعنى كل أولئك الباحثين على اختلاف ما بينهم إلى أن هناك فضيلة ورذيلة ، وأجبا هذه ، وثاروا على تلك ؛ فلن يكون تحكيم المنفعة منبهاً للثورة على الأخلاق . وهأنذا قد حكمت المنفعة فيما مضى من موازنة بين نجاح تاجر الفلال وتاجر المخدرات فلم تخرج النتيجة شاهدة بفشل الأخلاق وأخيراً يا صاحب الرسالة : اسمح لي أن أحلك رسالة إلى الثائرين . قل لهم : استعدوا للحياة بعد فهمها فهماً صحيحاً قبل أن تلقوا تيمة فشلهم على الأخلاق . ولا تحكموا على الفضائل بعمل الناس فتحكموا بفشل الأخلاق ، لأن للفضائل حقائق ثبتت على الاختبار ، وأيديها التجربة بعد بحث لا تزال الإنسانيات تمنحه قوتها وجهدها . وانظروا إلى النتائج البعيدة والقرية للأعمال ،

منه طفرة سريعة ونكسة غير بطيئة ؛ ولا أقل من ألم الخوف والفرع بعدم ثبات الحالة ، وتغير السيد ، والرأس الناكسة ، والعجز عن دعوى الفضيلة والكرامة التي يحرص مثل هؤلاء على ادعائها . آلام تنتهي بها العملية الحسائية إلى قريب من نتائجها المطردة ؛ وفي الجانب الثاني لئلا لا يرضى الشريف أن يدع مكانه مستبدلاً بها آلام خصمه ، ولو ساومته على ذلك لرفض . هذا إذا كان كل الفرق بينهما الأخلاق ؛ أما إن وجدت شيئاً وراء ذلك كما هو الكثير الغالب ، بل الذي يقع دائماً ، من لباقة وحسن بيان ، ومعرفة بالرغبات ، ومرونة في العمل ، وطلاقة وجه ، وما إلى ذلك ، فقد عادت الآلة على وخامة الثاني ونقصه لا على أخلاقه ، ولم تكن الأخلاق سبيلاً إلى الفشل ولا عائقاً عن النجاح وأما دعوى الثورة أن العليين القانعين المخصوصين بالرضا لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كفلان وفلان فدعوى يقول الأستاذ الزيات على لسان أصحابها : ما معنى أن يظل التواضع والقناعة والزهد والمدارة والتوكل على اطلاقها فضائل ؛ كما يقول : أليس صلف الإنجليزى أبلغ في المزة ، وطمع الفرنسي أليق بالحياة ، وطموح الإيطالي أخلق بالرجولة ، وصراحة الألماني أدعى إلى الهيبة ، واستقلال الأمريكي أضمن للفوز ؟

تلك هي الدعوى ؛ لكن هذا المعنى للفضائل التي عدت معنى لا تعرفه خلفية دينية ، ولا تفره خلفية فلسفية ؛ فإما التواضع أن تكون رقيق القدر فلا تنفطر ، وليس التواضع انضاعاً . وإما القناعة أن تملك فلا تشرب ، وليست القناعة ترك مادة الحياة وإفساح الطريق لماد أو غاصب . وإما الزهد أن تستطيع فلا تنهم ، وليس الزهد العجز عما في الدنيا والحسرة على ما في أيدي الناس . وإما التوكل أن تقدم واثقاً لا أن تهجم عاجزاً . وأما المدارة فما عرفناها بين الفضائل . والخلق والدين يقرران أن صلف الإنجليزى قبيح أفضل منه عزة المؤمن الذي يرى المزة لله ولرسوله وللمؤمنين فحسب . وطمع الفرنسي قبيح أليق منه قيام المتدين وذو الخلق بحق الحياة وواجبها . وطموح الإيطالي مفتعل أصل منه تلك المزة الروحية وهذا الإباء الساعى لإعلاء كلمة الحق ، المتقدم إلى الدنيا بمهمة اجتماعية ، وعمل إنساني يرغم من أجله ويجهد في سبيله . واستقلال الأمريكي بمض منافرة الذي يقدم واثقاً بأحدى الحسنيين . وصراحة الألماني بمض شجاعة الذي